

الطب عند قءما، المصرىىن

ألف هذا الكتاب الطىىب الإنسان بول غلىونجى .

وأهءاءه إلى فى مطلع حىاتى الأءىبة وكنت حءىئة عهد بالتخرج من الجامعة وأسعءنى يومئذ وإلى الیوم، بالهءىة وعهءىها.. فمثل هذه اللفات فى تلك السن الغضة كانت ترش الضوء على طرىقى ..

صف طویل من الأفءاذ أءباء وعلماء استقبلوا مولدى الأءبى فشرفت بهم وعاشوا فى ءاخلى وفى سطورى

كان الءكتور بول غلىونجى یعز بقاء المصرىىن وبالحضارة المصرىة.. حتى غلاف الكتاب اختاره بحب.. حىن توجه بصورة الكاهن «:ابىر» من أواخر عهد الأسرة الرابعة وقء سماه العمال الءىن كشفوا عنه «شىخ البلد» لشءة مشابھته لشىخ البلد فى قرىتهم..

ىقول الءكتور بول غلىونجى (وهى تسمى موفقة لأنه ىمثل روح مصر فى أول عهد الفراعنة تمثىلا يأخذ بالذهن.. (عبارة ناضرة وعمىقة فى آن).. فهو ىقف وقفة العزة والكرامة.. وهما صفتان تلحقان بأول شعب خرج من ظلمات العصر الحجرى، وخطا بقاءه إلى امام لىءخل عصر الواقعىة العملىة التى تبءو جلىة على وجهه الفىاض بالحق والرأفة.. وهما صفتان اتسم بهما فى الوقت نفسه مؤلف لفافة (اوبىن سمىث، الجراحىة).

وىستهل الءكتور بول غلىونجى كتابه بكلمة حكىمنا المصرى «بناح حتب»

إنما الحق ىءوم.. وتسطىع أن تقول عنه: هذا تراث أبى.

أقول صءقت یا أبى هذا تراثك وتراث أهلى من ألوف السنىن.

ما أجمل قول الءكتور بول غلىونجى فى استهلال الكتاب.. فى مقءمة المقءمة:

الحمء لله الءى أوجدنا فى هذه الأرض الخصبة التى أنجبت حضارة لم تفتأ تذهل العالم بما حققتة.. وتثىر إعجابہ بروحها المتجءءة.. هذه الروح التى سمحت لها بمسارىته فى كل مىءان، بالرغم من جمىع المحن التى ألمت بها.

وقد وقف الدكتور بول غليونجي في كتابه عند أهم لفائف البردى الطبية وهي ثمان:
وقد أطلق عليها أسماء:

كاهون- ادوين سميث- ايرز- هرست- برلين- وبيتي- ولندن- وكارلزبرج.

ومن الطريف التعليقات الفرعونية على هذه البرديات والتي منحتها كما يقول الطبيب بول غليونجي، حياة عجيبة مثل هذه العبارة: «جربت هذا ووجدته مفيدا» أو هذا التعليق «هذا طيب»..

أما لغة اللفائف ففيها، كما يقول، كثير من البديع في الوصف والتشبيه

١ - بردى كاهون: يرجع إلى عام ١٩٥٠ قبل الميلاد وهو أقدم أوراق البردى الطبية التي وصلت إلينا.. وتضم الصفحتان الأولى والثانية سبعة عشر تشخيصا في أمراض النساء.. كما تحوى الصفحة الثالثة سبع عشرة علامة للتكهن في فن الولادة.

٢ - بردى ادوين سميث: وهو يعتبر توأما لبردى ايرز.. والاثنان أكتشفا معا عند أحد بائعي الآثاريات في طيبة.. وقد أدى التشابه العجيب بينهما إلى نوع من النزاع بين سميث والهرأ يبرز عندما كان كل منهما يريد أن يشتري البردى..

والبرديان يحملان تاريخا واحدا هو ١٥٥٠ قبل الميلاد.. ولا يمكن الجزم بصحة نظرية بريستد القائلة بأن بردى سميث أكثر قدما.. وقد وصف بريستد هذه اللقافة بأنها أقدم كتاب للجراحة في العالم وأنها أحدث ضجة كبيرة في العالم الطبي وتحتوى فاتحته على كتاب الجروح الذى يشمل ثمانية وأربعين تشخيصا.

أما ظهر المخطوط فقد دونت عليه كتابة في الأمراض الباطنة.. وبه إشارة إلى مرهم محضر لإعادة الشباب إلى الشيوخ.. وإشارة أخرى تتعلق بأمراض المستقيم.

والحقيقة أن مخطوط أى بردية ادوين سميث يصف مشاهدات واقعية في جراحة العظام والجراحة العامة. وهو مقسم تبعا لتقسيم الجسم، فيبدأ بالرأس ويهبط حتى العمود الفقرى. وعدد المشاهدات ثمانى وأربعون وتشمل الجمجمة والأنف والفك، وفقرات الرقبة، وفقرات الظهر، والأضلاع، والصور، والترقوة، والكتف، واللوح، والصدر واليدين.

ويلاحظ أن طريقة العرض في هذه البردي تتسم بالنظام والدقة يقول الدكتور بول غليونجي أن كل مشاهدة تبدأ بالعنوان التالي: «تعليمات بشأن...»

لا توزع على الناس كما توزع عليهم طائفة من السلع المفيدة الأخرى - يبدو أنه شاهد طواير الجمعية - ولو قد وزعت الكلمات على الناس بأقساط معلومة، وأجبر كل إنسان على ألا يعدو نصيبه منها، فعندئذ قد يثق بأن الرجال والنساء الذين يستخدمون الكلمات مكتوبة ومنطوقة في أعمالهم اليومية سيبحثون بعناية أكبر عن الكلمة الصحيحة التي تناسب الفكرة المراد نقلها. فمحاولة بلوغ «الدقة» في استخدام الكلمات، تنتج كذلك دقة في التفكير.

ويقول إن الرجل من عامة الناس ليكفيه في حياته ٨٠٠ أو ١,٢٠٠ كلمة من بين آلاف الكلمات الموجودة في اللغة الانجليزية مثلاً.. إن شكسبير لم يستخدم إلا ١٥,٠٠٠ كلمة، ولم يستخدم «ملتون» إلا نحواً من ٨,٠٠٠ كلمة. فكلما قل عدد الكلمات التي يستخدمها شخص ما، كثر تكرار الكلمة الواحدة عنده، وهذا ينتهي بنا نحن الذين نصف أنفسنا بالذكاء، والذين ينشدون استخدام الكلمات الصحيحة في مواضعها، ينتهي بنا إلى ما ينبغي أن نعلمه وهو: (اجعل حديثك موجزًا واضحًا).

ومن أمثلة هذا كتاب ونستون تشرشل (الحرب المجهولة) عن الحرب الروسية الألمانية فيما بين سنتي ١٨١٤، ١٩١٧ فقد بلغ فيه من دقة التعبير ووضوح العبارة، مبلغاً تنتفي معه الحاجة إلى استعادة قراءة جملة أو صفحة لتبين المعنى المقصود.

وإذا كان الوضوح والدقة، لازماً في الكتاب فهو في الحديث، ألزم وهنا يترك المتحدث أثراً في نفس سامعه.

ويتناول استل هـ. ريز موضوع (الاختيار والحسم) فيحكى أن حماراً مات جوعاً، لأنه لم يستطع أن يفضل واحدة من حزمتي دريس وضعتا أمامه ليختار بينهما.

وهنا يعلق: سواء أكانت هذه الرواية صادقة أم لم تكن، وسواء أكان صاحب الاختيار حماراً أم غير حمار، فإن قدرة من أهم قدرات الفرد، أن يعرف كيف يختار.. وبطبيعة الحال، فإن مجرد الاختيار لا يعنى شيئاً ما لم يتبعه بقرار يضعه موضع التنفيذ.

بشرط أن يكون القرار مدروساً محسوباً محصلاً لا موضع فيه للشغرات، أو اغراءات تشبه عن المضي قدماً.

تروى الأساطير اليونانية لنا قصة «اتلانتا» التي كانت سريعة الحركة لدرجة أنه ما من شخص كان يستطيع أن يسبقها في سباق على الأقدام. وقد رضيت أن تتزوج من أى شاب يستطيع أن يغلبها في ذلك. أما من يخفق، فقد كان عليه أن يدفع حياته ثمناً لإخفاقه. وأخيراً تقدم لئنازلتها من يفوقها دهاء. وفي أثناء تقدمها السريع أمامه في السباق رمى ببعض التفاحات الذهبية في طريقها، فتوقفت لتلتقطها، وبذلك خسرت السباق.

والاختيار تحدده سياسة مرسومة أو فلسفة شخصية فاختيارنا أحد البدائل معناه أن نرفض بديلاً آخر. فمثلاً نجد «فاراداي» أحد عظماء الفيزيائيين، قد حقق عظمة فائقة في بعض النواحي بتوفيره الطاقة المنصرفة فيما عداها.. إن تجاهل الاهتمامات الثانوية، كانت عاملاً مهماً في نجاحه.. لقد كانت هذه هي الطريقة التي استطاع بها أن ينجز عمله العظيم: بناء نظرية كاملة في الكهرباء.

ربما كانت توضيحته كبيرة، لكنه كنتيجة لها أعطانا الحقائق الأساسية التي جعلت الهندسة الكهربائية الحديثة ممكنة. لقد اخترع المحول الكهربى، والدينامو، ومن نظرياته الأخرى، أمكن عمل التليفون، والراديو، وكثير غيرهما من الاكتشافات، والاكتراعات الهامة.

إن النمو الشخصى، ضرورة للحى.. ولكن النمو الشخصى لا يزدهر إلا فى جو من الحرية واحترام حقوق الإنسان.. إن الكثرة الغالبة من الناس اليوم لا يستغلون إلا جزءاً ضئيلاً من قدرتهم لأنهم مقيدون بالخوف والقصور الذاتى والحق وبغير هذا من أمراض النفس.. والعصر.. وعلى من يريد «النمو» أن يحطم هذه القيود الواحد بعد الآخر.. هنا نجد شخصاً جديداً ينبثق سن فوضى الماضى.

ولكن رحلة النمو الشخصى تحتاج الى التزود بقيمة الدين الصحيح. يقول ملفن إفانز.

ثم يجىء الفحص ويبدء بالعبرة: «إذا فحصت رجلاً...» ويتبعه التشخيص:

«قل فيما يخصه إنه يشكو...» ثم التوقيع وهو يعبر عن احتمالاته الثلاثة: الجيد.. والمشكوك فيه.. والميتوس منه.. بالعبارات التالية:

«سأعالجه» أو «سأكافحه» أو «مرض لن أعالجه».

وبعد ذلك بأتى العلاج وهو ينتهى ببعض التعليقات والتفسيرات وعددها سبعون..

يقول الدكتور غليونجي: هذا الجزء الأول من البردى - فضلا عما يتسم به من نظام فى العرض، يمتاز بالتبويب المنطقي المرتب.. وهذا يدل على أن تقاليد طويله وتفكيراً أصيلاً قد سبقا كتابته.

واقعية هذا البردى تتضح أيضاً من دقة الملاحظة التى تتصف بها الحالات مثل وصف حدوث الشلل والتبول اللاإرادى على أثر إصابات العمود الفقرى، والإصابة بالصمم من جراء كسر فى عظمة الصدغ.

وهذه الدقة تميز كذلك وصف التحريكات العلاجية كطريقة وضع بدى الجراح على الفك المخلوع لرده.

ويتحدث الدكتور بول غليونجي فى هذا الكتاب عن «المدارس» الطبية الفرعونية فيقول من المحقق أن نشأة أولى مدارس الطب فى مصر الفرعونية ترجع إلى عهد الأسرة الأولى.. وبعض هذه المدارس بلغ شأواً كبيراً فى ميدان الشهرة.. ومن بينها مدرسة فتحت فى سايس للمولدرات اللاتى كن يقمن بتدريس علم أمراض النساء للأطباء أنفسهم - هكذا بلغ شأو المرأة المصرية القديمة.. أقول إن مصر هى البلد الوحيد الذى وصلت فيه المرأة إلى منصب نقيبة الأطباء..

أعود إلى الدكتور بول غليونجي الذى يضيف إلى مدارس مصر الفرعونية مدرسة هليوبوليس، ومدرسة امحوتيب بممفيس التى زادتها شهرة مكتبتها الزاخرة بالمؤلفات التى كان يتردد عليها الأطباء حتى فى عهد جالينوس قبل الميلاد بقرنين. ويعتبر ليفير (Lefebvre) أن تلك المدارس التى كانت تسمى بيوت الحياة كانت بمثابة حوانيت للنساخين يلتقى فيها هؤلاء وهم على جانب كبير من العلم بالعلماء، ويتحدثون فى العلم والفلسفة، مثلها مثل «المسيون» (Mouseion) الذى ازدهر فى الاسكندرية فيما بعد.

ويقول (وإلى الكهنة يرجع الفضل فى إدخال كثير من الوصفات الصحية بحجة الدين مثل حظر أكل الخنزير والبجع.. والصيام اربعين يوماً كل عام - أزيد عشرة أيام مما نفعل فى رمضان فهل هى الأيام العشرة البيض - والصيام الفرعونى كان ينص فيه على تجنب العلاقات الجنسية.

وأوصى الكهنة بتعاطى شراب السنامكى مرة كل شهر، والاستحمام مرتين كل يوم..

كما أن الكهنة كانوا يتبعون قواعد خاصة يفرضونها على أنفسهم مثل إزالة ما ينمو على أجسامهم من شعر مرة كل ثلاثة أيام!!!

ومن جميل تقاليد الأطباء المصريين أن الطبيب كان يقتطع جزءاً من أتعابه يخص به المعبد الذي تلقى فيه علومه الطبية وقد جمع بعضهم ثروات طائلة مثل الطبيب الذي ذكره جوناكبير والذي كان يملك ١٨٢ منزلاً في طيبة.

وأشهر الأطباء في مصر الفرعونية هو ولاشك «امحوتيب» ومعنى ذلك الاسم «الذي أتى سالماً». وقد عاش في عهد الأسرة الثالثة أى قبل الميلاد بحوالى ثلاثين قرناً- أقول وهو مهندس هرم سقارة المدرج.. وهو نحات وهو رسام وهو كاتب اديب... إنه أول شخصية موسوعية في العالم.

وقد قال سير ويليام أوزلر «أنه أول شخصية طبيب ظهرت من غيوم قديم الزمان».

وكان كبير وزراء زوسر فرعون الهرم المدرج بسقارة وكان معمارياً فذاً إذ أنه أول من استعمل الحجر في البناء في تاريخ الإنسانية وأول من تخيل ونفذ مجموعة بنائية ضخمة تظهر لكل عين فوق الهضبة الغربية.

وكانت ألقابه «كاتم سر» ملك مصر السفلى.. نبيل بالوراثة كاهن هليوبوليس السامى.. وناسخ كتاب الإله إلا أن أجمل لقب لايمحوتب وهو رئيس كهنة «عين شمس» هو أن أصبح رمزا لكلية طب جامعة القاهرة.

وكان النساخون قبل كتاباتهم يصبون الماء على تمائيله قائلين: ماء من قنينة كل كاتب لروحك «كا» يايمحوتيب».

وانتحل الاغريق نسبته فقالوا أنه باسقولا ب إله الطب وابن أبولو في أساطيرهم..

ولكنها مصر الأم والوطن والمجد.

وعرفت مصر التخصص الدقيق يقول الدكتور بول غليونجى هذا متخصص في الرمد الحبيبي وذاك متخصص في مرض السيلان وثالث لا يعالج إلا الشرج ويطلق عليه اسم لا يخلو من البديع

هو «راعى الشرح» وقد تصف هذه التسمية الموكل إليه تركيب الحقن الشرجية.. بل إنهم أمعنوا فى تضيق ميادين تخصصهم حتى بزوا كما يقول الدكتور بول غليونجى فى ذلك بعض معاصرنا..

قال ديودوروس فى أسلوب حياة المصريين إنه يبدو مرتبا كأن طبيا نظمه وفقا لقوانين الصحة لا مشرعا مبتكرا للقوانين.

وكان الإجهاض وتحديد النسل يعاقبان عقابا شديدا وعن الفراعنة أخذت الآشوريون والأحباش واليهود عادة الختان

وأهم ما كان يتناوله المصريون القدماء من الأطعمة الحاوية للمواد الزلالية كأنواع السمك وكانوا يأكلونها مشوية أو مسلوقة أو نيئة أو مجففة فى حرارة الشمس أو محفوظة فى الملح (الملوحة والفسخ).

وكان الملح يباع على شكل قوالب كبيرة عشر على الكثير منها فى الآثار وقد أثبت التحليل أنها- حتى التى ترجع إلى الأسرة السادسة (٢٢٠٠ ق.م) وهى أقدم ما وجد- أقول إن التحليل قد أثبت نقاءها وخلوها تماما من الشوائب مما يدل على أن الملح فى عهد الفراعنة كان يستخرج من منابع مالحه وليس من البحر.

وكان الملح ذا رمز دينى كشأنه فى التوراة إلا أن هذا الرمز كان يرتبط عند المصريين ارتباطا أوثق بالنظرون الذى كثيرا ما كان يستعاض به عن الملح فى حفظ الأطعمة وكان معظمه يستخرج من وادى النظرون والجزء الأقل من الكاب بالقرب من أرمنت ومن نوكر اتيس فى الدلتا- وكان يسمى «نترى»- وهذه التسمية التى نستعمل مشتقاتها إلى اليوم «نترات» و «نترك» تفسر الرمز الدينى إذ أن كلمة «نتر» معناها الطاهر أو الإله.. يضاف إلى ذلك أن كان يخلط دائما بالبخور فى طقوس التطهير.

وإذا ما انتقلنا إلى داخل البيوت وجدنا أنها كانت تهويتها «بالملاقف» وترش بمحلول النظرون لقتل الحشرات وكانت مزودة بالمراحيض مما أثار دهشة هيرودوت فقال

إن المصريين يختلفون فى عاداتهم عن بقية الشعوب الأخرى فهم يتناولون طعامهم خارج مساكنهم- أقول دعوة إلى المشاركة فى الطعام لا يخفونه- بينما يقضون حاجتهم داخلها.

وقد اكتشف بورشاردت في مدينة تل العمارنة أربعة أنواع من المراحيض.. إضافة ورهافه من اخناتون.

وكانت جدران الحمامات مغطاة بالحجر أو بالخزف لصيانتها. وهذه الحمامات بلغت ذروة الترف في عهد رمسيس الثالث الذي بنى معبدا في مدينة هابو ثم هدمه وشيد على أنقاضه معبدا آخر مزودا بعدد من الحمامات.

وقد أظهرت حفريات بورشارت في معبد «ساحورع» ثاني فراعنة الأسرة الخامسة (٢٧٠٠ ق.م) في سقارة أحواضا من الحجر المبطن بالمعدن!! في كل حجرة وفي كل ممر، منه، وفي أسفل كل حوض فتحة تسدها سداده من المعدن مربوطة بسلسلة تشبه تماما السدادات والسلاسل المستعملة في الأحواض الحالية. وكانت فتحات الأحواض متصلة بشبكة من الأنابيب الجوفية قدر طولها بأربعمئة متر وتنتهي إلى الوادي، والأنابيب مصنوعة من صفائح النحاس المطروق مطوية على شكل أسطوانى مع مراعاة تراكب الأطراف ووضع الشفتين الى الأعلى.

والطب الفرعونى يمكن التمييز فيه، فى نظرتهم إلى المرض بين نوعين منه وهما: الأمراض الخارجية والأمراض الداخلية وقد دام هذا التقسيم إلى عصرنا هذا إذ يسمى الفرنسيون الجراحة بالباتولوجيا الخارجية والأمراض الباطنية بالباتولوجيا الداخلية. ص ٤٤

أما الموت فلم ينظر إليه المصريون نظرة الإسرائيليين أى كعقاب على خطيئة ارتكبها آدم وتقضى بحرمانهم من الحياة الآخرة ولكنهم رأوا فى الموت ظاهرة تتبع الحياة ولا تختلف عنها من حيث الجوهر وإنما هى إحدى حلقاتها فى عالم آخر.

ومن أطرف الطريق لو جاز هذا التعبير، أنهم مع دقتهم العلمية

كما يقول الدكتور بول غليونجى يصفون الأمراض وصفا شاعريا يقول:

بالرغم من تفوقهم فى الجراحة وعلم الكسور والرمد فقد وصفوا حوالى ٢٥٠ مرضا باطنيا وصفا دقيقا لا يخلو من الشاعرية فى التعبير، مثل تشبيههم الرجل المصاب بالضعف الشديد بالنسمة العابرة، والدمل بالفاكهة الذابلة.

أما البدانة فكان ينظر إليها بشيء من الازدراء ومن الطريف.. ومن الطعامه أن «نفسر ششم بتاح» رسم بدينا على جدار فى مقبرة سقاره، ونحيفا يافعا مع زوجته على جدار آخر كأن وجود السيدة أوجب الاهتمام بمظهره.. إنه لا يكذب ولكنه يتجمل.

وكذلك «عنخ مهور» فقد رسمه الفنان نحيفا على واجهة المقبرة وبدينا فى ظلام الجدار الداخلى.

أعرف مصرية، أن أسماءهم أوصاف فعميد الأطباء «ايمحتب» معناه: الذى أتى سالما. ونفرتيتى معناها: الجميلة تتخطر.

ونفرتارى معناها «جميلة الجميلات» كما نقول فى الريف اليوم أقصد كما نسمى «أحلاهم». و «حتب حرس» معناه وجهها راض سعيد.

ولكن إذا بلغت حضارة المتحضرين جمال الأسماء فى رقة ونعومة وترف خصب الوادى ونعيم النيل.. إذا كان هذا طبع مصر الحضارة فلا غرو ولكن أن يبلغ الحسن من الرهافة تجميل المرض ووصفه فى رقة فهذا ما لا يعرفه بلد آخر فى الدنيا.

لم يعرف بلد فى الدنيا الضعف الشديد بالنسمة العابرة. إنها مصر الرقيقة المرفه ذوقا وحسا ونفسا واسما إنها مصر المتحضرة أقصد أم الحضارة.. أم الدنيا.